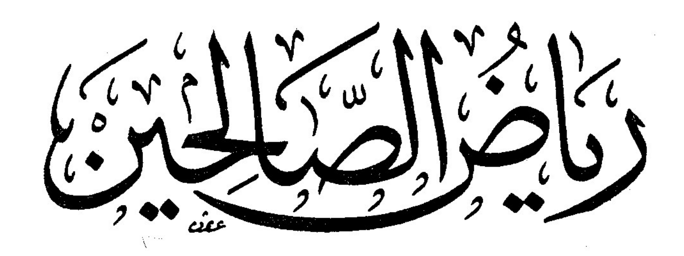


تأليف

الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي

٦٣١ - ٦٧٦هـ

حققه وخرج أحاديثه

عبد العزيز رباح   أحمد يوسف الدقاق

راجعه

الشيخ شعيب الأرنؤوط

(طبعة مقابلة على نسختين خطيتين)

دار المأمون للتراث

دمشق – ص . ب ٤٩٦١

طبعة ثانية منقحة

مطبعة محمد هاشم الكتبي
بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أعطى نبيه القرآن ومثله معه ، وصلى الله على من أوتي من الكلم جوامعه ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه .

وبعد فإن من عظيم لطف الله بعباده ، ومننه الوافرة التي تفوق الحصر ، أن هيأ لهذه الأمة في مختلف العصور علماء عاملين مخلصين ، وقفوا حياتهم على خدمة الشريعة ونشرها بين الناس تعليماً وتأليفاً ، وصيانتها من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين .

وكان من هؤلاء العلماء شيخ الإسلام **الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي** الذي يعد في طليعة أعلام القرن السابع الهجري ، فقد ألف كتباً كثيرة نافعة في موضوعات مختلفة ، تناقلتها الألسن بالثناء والتقدير ،وعكف العلماء على دراستها والإفادة منها والنقل عنها ، وكان من أجلها نفعاً ، وأكثرها تداولاً ، وأعمهاانتشاراً بين الخاص والعام كتاب « **رياض الصالحين** » وذلك لأمرين :

أولهما : ماتضمنه من نفحات نبوية عبقة الشذى فواحة الأريج ، تهذب الروح وتسمو بها ، وتولد فيها حافزاً قوياً على التحلّي بما خلقت له من العبادة ، وتصل بها إلى مافيه إسعادها وصلاح أمرها ؛ وذلك لما اشتمل عليه من ترغيب وترهيب ، وطهارات للقلوب وعلاجها ، وصيانة الجوارح وتقويم اعوجاجها ، وغير ذلك من المقاصد التي يحتاج إليها المكلف الفَطِن الذي يهمُّه أمردينه ودنياه وآخرته . فهو كتاب تربوي فذّ ، تناول مختلف جوانب الحياة الفردية والاجتماعية بأسلوب واضح ،

يدرك مرماه الخاص والعام،والمثقف ومن دونه ، ذلك لأنه لغة أفصح الخلق الذي تنزل القرآن على قلبه ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً ، وقد انتقاه المؤلف رحمه الله من أمهات كتب السنة المعتمدة **كالبخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجه** وغيرهم والتزم أن لا يذكر فيه إلا ما صح من الأحاديث ، وقد وفى بالتزامه هذا ، فلم يعثر فيه إلا على النزر اليسير من الأحاديث الضعيفة ، كما سيتبين ذلك من التخريج ، مما يدل على تمكن المؤلف ، رحمه الله ، من السنة النبوية رواية ودراية .

ثانيهما : المكانة العلمية المرموقة التي كان يتبوؤها المصنف بين علماء الشريعة في عصره ، لما أوتيه من بسطة في العلم في مختلف مناحي الثقافة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه ولغة وتأريخ وغير ذلك ، وكان يتوج هذه السعة العلمية إخلاص وتقوى ، وورع وزهد ، ونصرة للحق وسيرة حميدة تعكس صورته العلمية وترجمها إلى واقع عملي في الحياة .

وعلى الرغم من تلك الأهمية والشهرة التي يتمتع بها هذا الكتاب ، فإنه لم يحظ بالعناية اللائقة به ، فقد تداولت دور النشر في مصر والشام طبعه طبعات ليس فيها تحقيق ، ولا تخريج ولا زيادة ضبط ولا تنقيح ،وربما كان أكثرها شيوعاً الطبعة التي حققها الأستاذ رضوان محمد رضوان ،وقد اجتهد في تصحيح ما استطاع ، غير أنه فاته الشيء الكثير ، وعلى هذه الطبعة اعتمدت بعض دور النشر في دمشق وغيرها ، فأخذتها بما فيها من أغلاط ، مصورة لها تارة ومعلقة عليها تارة أخرى ،بل ربما زادت عليها مالم يكن فيها ، **فرأينا من النصفة لهذا الكتاب أن نقوم بنشره نشرة صحيحة دقيقة وفق القواعد العلمية المتبعة في التحقيق دون الإشارة إلى ما وقع في تلك الطبعات من أخطاء رغبة في الاختصار وعدم إثقال الحواشي بما لا يعود على القارىء بكبير فائدة ويبعدنا عن القصد .**

عملنا في التحقيق

١ ــ رجعنا إلى أصول الكتاب الخطية وقد توفر منها في دار الكتب الظاهرية عدة نسخ فاعتمدنا من بينها نسختين :

أولاهما : تحت رقم (٣٢٦٩ عام) بمقياس ٢٥ × ١٨,٥ سم وتقع في ١٤٠ ورقة في كل صفحة ٢٧ سطراً ، وقع فيها نقص من ورقة ٣٥ حتى ٥١ ، خطها واضح وجيد والناسخ واحد . وتاريخ نسخها أصاب مكانه التلف في الأصل فلم يتبين لنا ، ويرجح أنها من القرن الثامن الهجري وهي نسخة جيدة من حيث الضبط والصحة فهي مقروءة ومقابلة ،وقد زينت هوامشها بشروح وتعليقات طفيفة وروايات من نسخ خطية أخرى ، وبكلمة « بلغ » أو « بلغ مقابلة » دلالة على المقابلة والضبط ، وقد ذكر على صفحة الغلاف ما نصه : « نسخة الأصل التي نقلت هذه منها قوبلت على نسخة الشيخ التي بخطه » ونص عنوان الكتاب فيها : رياض الصالحين من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانيتهما : تحت رقم (٦٦٧٨ عام) . مقياسها ٢٥ × ١٨ في كل صفحة ٢١ سطراً وهي تامة ، وعدد أوراقها ١٨٠ ورقة ، فرغ كاتبها محمد بن علَي من نسخها سنة ٧٣٨ هـ استعمل ناسخها الخط النسخي مرة والفارسي مرة أخرى ولكنه التزم في عنوانات الكتب والأبواب الخط النسخي ، وهذه النسخة أيضاً جيدة الخط ، غير أنها أقل ضبطاً من سابقتها . ونص عنوان الكتاب فيها هو : رياض الصالحين ونزهةالطالبين .

وقد تجنبنا إثبات الاختلاف فيما بين النسختين لعدم الفائدة ، وأثبتنا من الروايات ما ينسجم مع الأصول التي اعتمدها المؤلف رحمه الله .

٢ ـــ خرجنا الأحاديث من مصادرها التي رجع إليها المؤلف ، وربما زدنا عليه في التخريج في بعضها ، وكانت الغاية من هذا العمل زيادة التأكد من صحة النصوص وضبطها وتوثيق نسبتها وتسهيل الرجوع إليها في مصادرها الأم للدارسين .

٣ ـــ ماكان من الأحاديث مختاراً من غير الصحيحين فقد تفضل أستاذنا المحقق الأخ شعيب الأرنؤوط ،المعروف بتخصصه في علوم السنة النبوية ، بالنظر فيها ،والكلام عليها بإيجاز من جهة الصحة والضعف ، وفق الأصول العلمية المتبعة في مصطلح الحديث ، وما كان في سنده ضعف من تلك الأحاديث ـــ وهي قليلة ـــ التمس لها طرقاً وشواهد تقويها وتجعلها صالحة للاحتجاج ماوجد إلى ذلك سبيلاً .

٤ ــ أثبتنا شرح غريب الألفاظ التي أغفلها المؤلف من غير بسط ولا إسهاب كما قمنا بالتعليق على بعض الأحاديث لبيان معناها وما يستفاد منها ، أو لإزالة ما قد يتوهمه القارىء من التعارض فيما بينها معتمدين في ذلك على شروح الأئمة المتقدمين المشهود لهم بالمعرفة والفضل من أمثال أبي سليمان الخطابي (١) ، وابن رجب الحنبلي (٢) ، والقرطبي (٣) المحدث شارح صحيح مسلم ، والمنذري (٤) وابن كثير (٥) وابن حجر (٦) ، وابن قيم الجوزية (٧) .

٥ ــ اقتصرنا في التخريج على رقم الحديث والجزء والصفحة دون ذكر الكتاب والباب ، واكتفينا بالرمز إلى أسماء المؤلفين رغبة في الاختصار .

وهذا بيان ما رمزنا إليه :

خ : للإمام البخاري . وقد رجعنا إلى شرحه « فتح الباري » المصور عن طبعة بولاق سنة ١٣٠١ هـ . هادفين من وراء ذلك أن يسهل على طلاب العلم الرجوع إلى شرح واف موسع للحديث ، لأن هذا الكتاب يعد بحق قاموساً للسنة النبوية .

خد : له في الأدب المفرد المطبعة السلفية .

م : للإمام مسلم في صحيحه بتحقيق فؤاد عبد الباقي .

د : للإمام أبي داود في سننه بتحقيق دعاس وعبيد طباعة دار الحديث .

ت : للإمام الترمذي في سننه بإشراف الدعاس نشر مكتبة دار الدعوة بحمص .

---

(١) حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (٣١٩ ــ ٣٨٨ هـ) .

(٢) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السَّلامي البغدادي ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق (٧٣٦-٧٩٥هـ).

(٣) أحمد بن عمر بن ابراهيم أبو العباس الأنصاري (٥٧٨ ــ ٦٥٦ هـ) .

(٤) عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله (٥٨١ ــ ٦٥٦ هـ) .

(٥) اسماعيل بن عمر بن كثير (٧٠١ ــ ٧٧٤ هـ) .

(٦) ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي (٧٧٣ ــ ٨٥٢ هـ) .

(٧) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ) .

ن : للإمام النسائي في سننه بشرح الحافظ السيوطي وحاشية الإمام السندي .

جه : للإمام ابن ماجه بتحقيق فؤاد عبد الباقي . **هق** : للبيهقي في السنن .

دي : للإمام الدارمي بتحقيق أحمد دهمان . **حب** : لابن حبان .

ك : للإمام الحاكم النيسابوري في مستدركه تصوير مكتب المطبوعات الإسلامية (حلب

حم : للإمام أحمد بن حنبل في مسنده . تصوير المكتب الإسلامي ودار صادر .

ط : للإمام مالك في الموطأ . بتحقيق فؤاد عبد الباقي .

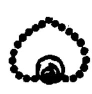
٦ ــ ذلك هو ما صنعناه لأجل هذا الكتاب الجليل وهو جدير بالعناية والبذل ، وإننا ، يعلم الله ، لم ندخر وسعاً ، ولم نبخل بجهد مادي أو فكري في سبيل إخراجه إخراجاً يزدان بجمال المظهر ويزهو بصحة المخبر . فإن ظفرنا بالبغية فلله الفضل والمنة ، وإن ظهر بعض التقصير ، وبدت بعض الهفوات ، فنحن لا ندعي العصمة فيما صنعناه .

وإننا لنهيب بأهل العلم من القراء أن يلفتوا نظرنا إلى ما قد يبدو لهم في عملنا من ملاحظات خالصة ، فنحن على استعداد لاستدراكها في المستقبل إن شاء الله .

والله الكريم نسأل أن ينفع بعملنا ويهدي ، ويجعله خالصاً لوجهه ويجزي ، إنه لا يضيع أجر من أحسن عملا .

دمشق في ٤ رجب الخير ١٣٩٦
الموافق لـ ١ تموز ١٩٧٦

المحققان





لبعضهم

ايها الناهج نهج المصطفى، طالبا سنته في كل حين

غير كتب النووي لا تعتمد، وتنزه في رياض الصالحين

هذا ما وقفه الوزير المكرم والمشير المفخم الحاج اسمعيل باشا محافظ الشام

على ... والد المرحوم الحاج اسمعيل باشا

نسخة الظاهرية برقم (٣٢٦٩ عام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القهار العزيز الغفار مكور الليل على النهار تذكرة لأولي القلوب والأبصار وتبصرة لذوي الألباب والاعتبار الذي أيقظ من خلقه من اصطفاه فزهدهم في هذه الدار وشغلهم بمراقبته وإدامة الأفكار وملازمة الاتعاظ والادكار ووفقهم للدأب في طاعته والتأهب لدار القرار والحذر مما يسخطه ويوجب دار البوار والمحافظة على ذلك مع تغاير الأحوال والأطوار أحمده أبلغ حمد وأزكاه وأشمله وأنماه وأشهد أن لا إله إلا الله البر الكريم الرؤوف الرحيم وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله الهادي إلى صراط مستقيم والداعي إلى دين قويم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين وآل كل وسائر الصالحين أما بعد فقد قال الله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة فإنها دار نفاد لا محل إخلاد ومركب عبور لا منزل حبور ومشرع انفصام لا موطن دوام فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العباد وأعقل الناس فيها هم الزهاد قال الله تعالى إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والآيات في هذا المعنى كثيرة ولقد أحسن القائل

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحي وطنا

جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

نسخة الظاهرية برقم (٦٦٧٨ عام)

ترجمة المؤلف (*)

مولده ونشأته :

هو يحيى بن شرف بن مُرّي بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام أبو زكريا النووي الدمشقي . ونوى من أرض حوران ، من أعمال دمشق ، وكان جده الأعلى حِزام ، نزلها على عادة العرب فأقام بها ، ورزقه الله تعالى ذرية كثيرة .

ولد سنة (٦٣١ هـ) في نوى ، وتولى والده الصالح رعايته وتأديبه ، ونشّأه تنشئة طيبة ، فحضه منذ الصغر على طلب العلم ، لما لاحظ فيه من مخايل النجابة والذكاء والاستعداد الفطري .

قال الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي : رأيت الشيخ وهو ابن عشر سنين بنوى، والصبيان يكرهونه على اللعب معهم ، وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، فوقع في قلبي محبته ، وكان قد جعله أبوه في دكان ، فجعل لايشتغل بالبيع والشراء عن القرآن ، فأتيت معلمه فوصيته به ، وقلت له : إنه يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم ، وينتفع الناس به ، فقال لي : أمنجم أنت ؟! فقلت : لا ، وإنما أنطقني الله بذلك ، فذكر ذلك لوالده فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الحلم .

ولما كانت بيئته في نوى لاتشبع نهمه العلمي فقد قدم به والده إلى دمشق سنة ٦٤٩هـ وكان عمره تسع عشرة سنة . وكانت دمشق إذ ذاك موئل العلماء ومنهل الفضلاء ومهوى أفئدة طلاب العلم . وكان فيها من المدارس التي يدرس فيها مختلف أنواع العلم مايزيد على ثلاثمئة مدرسة ، ومنذ أن حط رحله فيها التقى بالشيخ عبد الكافي بن عبد الملك الربعي (المتوفى سنة ٦٨٩ هـ) وأطلعه على دخيلة نفسه وما ينتويه من طلب

(*) نلفت النظر هنا إلى أننا لم نترجم للمؤلف ، رحمه الله ، بما هو جدير به ، وإنما اقتصرنا على ما ينفع قارئ الكتاب ، وما لا يحسن الجهل به من شخصيته القدوة ، ومن طلب المزيد فعليه بمظان ترجمته المذكورة في الأعلام ١٨٥/٩ وبما كتبه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الغني الدقر في كتابه « الإمام النووي » طبع دار القلم .

العلم ، فأخذه وتوجه به إلى حلقة العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن الفركاح (المتوفى سنة ٦٩٠ هـ) فقرأ عليه دروساً وبقي ملازمه مدة ، ثم إنه التمس من شيخه هذا مكاناً يأوي إليه ويسكن فيه ، فدله على شيخ المدرسة الرواحية الإمام الفقيه كمال الدين إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي ، فتوجه إليه ولازمه وأخذ عنه ، وسكن المدرسة الرواحية (١) وقد ذكر المؤلف رحمه الله أنه بقي نحو سنتين لايضع جنبه على الأرض ، ويتبلغ بشيء من القوت يسير ، وحفظ التنبيه في نحو أربعة أشهر ونصف ، ثم حفظ ربع العبادات من المهذب في باقي السنة ، وهو يشرح ويصحح على شيخه الكمال المغربي ، وقد أعجب به شيخه أيما إعجاب لما رأى من دأبه وحرصه وانصرافه إلى طلب العلم ، فأحبه محبة شديدة وجعله معيد الدرس في حلقته لأكثر الجماعة .

شيوخه :

أما شيوخه الذين تلقى عليهم وسمع منهم خلال إقامته في دمشق فقد كانوا أكثر من عشرين عالماً من خيرة علماء عصرهم ، وممن برعوا في مختلف العلوم وأصناف المعارف كالفقه والحديث وعلم الأصول وعلم العربية وغير ذلك من الاختصاصات قارنين إلى ذلك سيرة حميدة وأخلاقاً نبيلة كان لها أوضح الأثر فيمن أخذ عنهم. منهم :

١ ــ أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي .

٢ ــ عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي .

٣ ــ أبو محمد عبد الرحمن بن نوح المقدسي ثم الدمشقي ، ولي المدرسة الرواحية

٤ ــ أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الإربلي ، معيد الباذرائية .

٥ ــ أبو الحسن سلاّر بن الحسن الإربلي ثم الحلبي ثم الدمشقي .

---

(١) كانت هذه المدرسة لصيقة الجامع الأموي من جهة بابه الشرقي ، وبانيها هو زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة المتوفى سنة ٦٢٢ هـ . «انظر ترجمته في الشذرات» وكان يدرس فيها نخبة ممتازة من أهل العلم و الفضل كابن الصلاح و بهاء الدين السبكي ،وولي الدين السبكي ، والكمال بن الزملكاني ، وصفي الدين الأرموي ، وشمس الدين المقدسي . انظر الدارس للنعيمي ص ١ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ... ٢٦٨ .

٦ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن عمر الواسطي ، سمع عليه صحيح مسلم .
٧ ـ أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي شيخ دار الحديث النورية في دمشق.
٨ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي الشافعي .
٩ ـ الإمام المحدث الكبير الضياء بن تمام الحنفي ، لازمه في سماع الحديث وما يتعلق به.
١٠ ـ الشيخ أبو العباس أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي .
١١ ـ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الجياني .
١٢ ـ العلامة القاضي أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي .
١٣ ـ أبو العباس أحمد بن عبد الدائم المقدسي .
١٤ ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي .
١٥ ـ أبو محمد عبد الرحمن بن سالم أبو يحيى الأنباري .
١٦ ـ أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم ابن أبي اليسر التنوخي .
١٧ ـ أبو محمد عبد العزيز بن أبي عبد الله بن عبد المحسن الأنصاري .
١٨ ـ الإمام العلامة أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي .
١٩ ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن الحسن البادراني البغدادي ثم الدمشقي .
٢٠ ـ القاضي عماد الدين أبي الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد الحرستاني .
٢١ ـ الفضل محمد بن محمد بن محمد الفكري الحافظ .
٢٢ ـ أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الحراني الصيرفي .

سماعاته : كانت مسموعاته على المشايخ كتب السنة التالية :

الجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود وجامع الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن النسائي ، وموطأ مالك ، ومسند الشافعي ، ومسند أحمد ، ومسند الدارمي ، ومسند أبي يعلى ، وصحيح أبي عوانة ، وسنن البيهقي ، وشرح السنة للبغوي ، وعمل اليوم والليلة لابن السني ، والجامع لآداب الراوي والسامع للخطيب البغدادي ، والأنساب للزبير بن بكار ، وأجزاء كثيرة غيرها .

المدارس التي درس فيها :

١ ـ ولي رحمه الله مشيخة دار الحديث الأشرفية بعد الإمام أبي شامة سنة (٦٦٥هـ) إلى أن مات وهي في دمشق جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية . بناها الملك

الأشرف من ملوك الدولة الأيوبية (٥٧٩ — ٦٣٥ هـ) وقد نشر بها علماً جماً ، وأفاد الطلبة ،وحدث بالصحيحين سماعاً وبحثاً،وبقطعة من سنن أبي داود،وصفوة التصوف ، والحجة على تارك المحجة،وشرح معاني الآثار للطحاوي . وكان ينوب بالمدرسة الركنية التي بناها ركن الدين منكورس عن القاضي شمس الدين بن خلكان مؤلف وفيات الأعيان، وقال القطب اليونيني : إن الشيخ باشر الإقبالية والفلكية (١) .

صفاته العلمية والخلقية :

لم يكد الإمام النووي يستقر في المدرسة الرواحية حتى أقبل على طلب العلم بنهم وشغف ، وجدّ واستعداد ، وهمة لا تعرف الكلل والملل ، فكان يقرأ كل يوم أحد عشر درساً على العلماء شرحاً وتصحيحاً : درسين في « الوسيط » للغزالي ، وثالثاً في « المهذب » للشيرازي ودرساً في « الجمع بين الصحيحين » للحميدي وخامساً في « صحيح مسلم » ودرساً في « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، ودرساً في « اللمع » لابن جني ، ودرساً في أصول الفقه في « اللمع » للشيرازي و « المنتخب » للفخر الرازي، ودرساً في « أسماء الرجال » ، ودرساً في أصول الدين ، وكان يعلق جميع مايتعلق بها من شرح مشكل ، وإيضاح عبارة ، وضبط لغة .

وما كان ينام من الليل إلا أقله ، وإذا غلبه النوم استند إلى الكتب لحظة ثم انتبه ، قال الذهبي : وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً ، وهجره النوم إلا عن غلبة ، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة ، أو التردد على الشيوخ ، حتى إنه إذا مشى في الطريق ، كان يشتغل في تكرار مايحفظ أو يطالع مايحتاج إلى مطالعة ، واستمر على ذلك ست سنين . وكان رحمه الله قوي المدرك حاضر البديهة تنثال عليه المعاني انثيالاً في وقت الحاجة إليها ، وكان عميق الفكرة بعيدالغوص لايكتفي بدراسة ظواهر الأمور ، بل يذهب إلى أعمق أغوارها ، وكان بعيد المدى في الفهم لايقف عند حد حتى يصل إلى الحق كاملاً فيما يراه . وكان يتمتع بحافظة قوية

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٣/٢٨٣ ، ٢٨٤ .

مستوعبة جعلته يستولي على أبواب العلم استيلاء ، فإن الحافظة القوية تمكن العالم من السيطرة الفكرية على ما يقرأ بحيث يربط أقصاه بأدناه ، وأوله بآخره ، وأجزاءه بعضها ببعض . وقد كان رحمه الله تتمثل فيه الآداب التي ذكرها في كتابه « المجموع » [1] لمن ينصب نفسه للتعليم وهي :

١ ــ أن يقصد بتعليمه وجه الله ، ولا يقصد توصلاً إلى غرض دنيوي كتحصيل مال أو جاه أو شهرة أو سمعة ، أو تميز عن الأشباه ، أو تكثر بالمشتغلين عليه ، أو المختلفين إليه . ولا يشين علمه وتعليمه بشيء من الطمع في رفق تحصل له من مشتغل عليه من خدمة أو مال أو نحوهما ، وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التي لولا اشتغاله عليه لما أهداها له .

٢ ــ أن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها ، وحث عليها ، والخلال الحميدة ، والشيم المرضية التي أرشد إليها من التزهد في الدنيا ، والتقلل منها ، وعدم المبالاة بفواتها ، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق ، وطلاقة الوجه والحلم والصبر ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة ، والوقار والتواضع ، والإقلال من المزح ، وملازمة الآداب الشرعية الظاهرة والخفية .

٣ ــ الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه بدرجات ، وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الانسان ، فلا يعترض ولا يكره ما اقتضته الحكمة ، وطريقه في نفي الرياء أن يعلم أن الخلق لاينفعونه ولا يضرونه حقيقة فلا يتشاغل بمراعاتهم ، فيتعب نفسه ، ويضر دينه ، ويحبط عمله ، ويرتكب سخط الله ، ويفوته رضاه .

وطريقه في نفي العجب أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى ومعه عارية ، فإن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فينبغي ألا يعجب بشيء لم يخترعه ، وليس مالكاً له ، ولا هو على يقين من دوامه .

وطريقه في نفي الاحتقار التأدب بما أدّبنا الله تعالى ، قال تعالى : (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) وقال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)

(١) ٢٥/١ ، ٢٨ .

فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى وأطهر قلباً، وأخلص نية،وأزكى عملاً.

٤ – دوام مراقبته لله تعالى في علانيته وسره ، محافظاً على قراءة القرآن والأذكار والدعوات ، ونوافل الصلوات والصوم وغيرها ، معولاً على الله في كل أمره ، معتمداً عليه ، مفوضاً في كل الأحوال أمره إليه .

٥ – أن يستمر مجتهداً في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراءاً ومطالعة وتعليقاً ومباحثة ومذاكرة وتصنيفاً ، ولا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو دين أو في علم آخر ، بل يحرص على الفائدة ممن كانت عنده ، وإن كان دونه في جميع هذا . وينبغي ألا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة مالا يعرفه ، فقد كان كثير من السلف يستفيدون من تلامذتهم ماليس عندهم .

٦ – ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له ، فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه ، لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقه ، وواضحه من مشكله ، وصحيحه من ضعيفه ، وجزله من ركيكه ، ومالا اعتراض عليه من غيره ، وبه يرتفع عن الجمود على محض التقليد ، ويبلغ منزلة الأئمة المجتهدين أو يقاربهم .. وليحذر كل الحذر أن يشرع في تصنيف ما لم يتأهل له ، فإن ذلك يضره في دينه وعلمه وعرضه ، ولايخرج تصنيفه من يده إلا بعد تهذيبه وترداد نظره فيه وتكريره . وليراع في تصنيفه وضوح العبارة ، والإيجاز غير المخل ، وليتطرق إلى المواضيع التي لم يسبق إليها ، ويعم الانتفاع بها ، وتدعو الحاجة إليها .

٧ – وينبغي له أن يحرض طلابه على الاشتغال في كل وقت ، ويطالبهم في حفظ مايلزم حفظه ، وينير أذهانهم بطرح الأسئلة المهمة عليهم، فيثني على المجتهد منهم والنابغة فيهم ترغيباً له وشحذاً لهمم الآخرين ويوجه إلى المقصر منهم اللوم غير المنفر ويبسط له ما أشكل عليه ليتضح له ، وعليه أن ينصفهم في البحث ، فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً ، ولا يحسد أحداً منهم لوفرة تحصيله ، وحدة ذهنه ، وحضور بديهته ، فإن الحسد حرام لغير طلابه ، وهنا أشد ، فإنه بمنزلة الولد،وفضيلته يعود إلى معلمه منها نصيب وافر ، فإنه مربيه ، وله في تعليمه وتخريجه في الآخرةالثواب الجزيل ، وفي الدنيا الدعاء المستمر والثناء الجميل .

٨ ــ ومن أهم مايؤمر به ألا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة يبتلى بها جهلة المعلمين لغباوتهم وفساد نيتهم ، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله .

تلك هي أهم خصائصه العلمية .

أما الجانب الخلقي من شخصيته فقد كان رحمه الله على جانب عظيم من التقوى والإنابة فهو ــ كما سبق أن أشرنا ــ منذ نعومة أظفاره كان يستشعر خشية الله فينفر عن اللهو، وينصرف عن اللغو،ويملأ فراغه بقراءة القرآن والأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله ، وقد بلغ من الورع والزهد شأواً بعيداً . قال الذهبي : كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم مع التقوى والقناعة والورع والمراقبة لله تعالى في السر والعلانية ، وترك رعونات النفس ؛ من ثياب حسنة ، ومأكل طيب ، وتجمل في هيئته ، بل طعامه جلف الخبزبأيسر إدام ، ولباسه ثوب خام وسختيانة لطيفة .

قال علاء الدين بن العطار : إنه كان لايأكل من فاكهة دمشق ، فسألته عن ذلك فقال : إنها كثيرة الأوقاف والأملاك لمن تحت الحجر شرعاً ، ولا يجوز التصرف في ذلك إلا على وجه الغبطة والمصلحة ، والمعاملة فيها على وجه المساقاة ، وفيها اختلاف بين العلماء ، ومن جوزها قال بشرط المصلحة والغبطة ليتيم و لمحجور عليه ، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء الثمرة للمالك فكيف تطيب نفسي ؟ !

وهناك الكثير من ثناء العلماء عليه ، وقد لخصه المحدث أبو العباس بن فرح في قوله : كان الشيخ محيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب ، كل مرتبة منها لو كانت لشخص شدت إليه آباط الإبل من أقطارالأرض، المرتبة الأولى: العلم والقيام بوظائفه . الثانية : الزهد في الدنيا وجميع أنواعها . الثالثة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفاته :

في سنة ست وسبعين وستمائة قفل راجعاً إلى نوى بعد أن أقام في دمشق نحواً من ثمانية وعشرين عاماً وبعد أن رد الكتب المستعارة من الأوقاف ، وزار مقبرة شيوخه فقرأ ودعا وبكى ، وزار أصحابه الأحياء وودعهم ، فمرض بنوى وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين من رجب ودفن بها . ولما بلغ نعيه إلى دمشق ارتجت هي وما حولها بالبكاء ، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً . ورثاه جماعة يبلغون عشرين نفساً بأكثر من ستمائة بيت . رحمه الله .